

ظاهرة العبث

في الشعر العربي المعاصر *

بقلم الأستاذ: رجا النقاش

تنتشر في الشعر العربي الآن موجة بالغة الضرر والخطورة، وينبغي تحذير الشعراء المعاصرين - وخاصة أبناء الجيل الجديد حتى لا يقعوا في مصيدة هذه الموجة الخاطئة المليئة بالفوضى والعبث، والتي يتبناها البعض بحسن نية، ظناً منهم أنها تمثل الفن العصري الصحيح، - ويتبناها البعض الآخر بسوء نية، من أجل تضليل الإنسان العربي وإضعافه أمام مشاكله الحقيقية وهمومه الجارفة، أما لماذا يفعل أصحاب النية السيئة هذا كله، فذلك يعود - في أغلب الظن - إلى المنافع الكثيرة التي تهبط عليهم من بعض المؤسسات العلمية الغربية، والتي تريد أن تخلق الاضطراب في صفوف الأمة العربية، وتشوه أمامها حقيقة ما تسعى إليه من أهداف صحيحة نحو النهوض والتقدم وحل المشكلات العسيرة التي تواجه هذه الأمة في السياسة والاقتصاد وسائر جوانب الحياة ولا جدال في أنه إذا أراد أحد أن يفسد حياة أمة، وينشر الضعف والارتباك بين أفرادها، فإن أفضل وسيلة إلى ذلك هي إفساد ذوق هذه الأمة، وتشويه إحساسها بالجمال، ونشر التفكك في ألفاظها ولغتها، فكل ذلك يؤدي في نهاية الأمر إلى تحويل أفراد الأمة إلى نباتات مخلوعة من الأرض غير قادرة على النمو والازدهار.

لا حدود له.

ويحاول أحد زعماء هذه الموجة وهو الأديب والصحفي اللبناني المعروف «أنسي الحاج» أن يقدم لنا تعريفاً لنظرية الحداثة هذه كما يفهمها فيكتب لنا هذا الكلام السخيف تحت عنوان «شهادات عن الحداثة»، وأنا أنقل هذا النص من بحث للناقد السعودي محمد رضا نصر الله، يقول «أنسي الحاج»، أحد زعماء مدرسة «الحداثة» هذه ما نصه:

«الحداثة هي أن أخطيء حقي عندما أكون على حق، وأنا آخذ حقي عندما أكون مخطئاً. الحداثة هي أنني أفضل شاعراً عربياً مخموراً مسكوناً بهواجس الجنون والرغبة والإباحية، ويعيش في مواخير باريس الفكرية والشعرية اسمه عبد القادر الجنابي على الشعر العربي كله - والحداثة هي ألا أكتب شعراً وألا أكتب شيئاً - والحداثة هي أن أخرج من اللغة. وهي نحت العالم في ماء الرغبة».

ويواصل «أنسي الحاج»، الكتابة بهذه الطريقة العبثية وينشرها على الناس ثم ينشر نماذج من شعره على هذا الأساس، ويقدم إلينا

وهذه الحركة الجديدة في الشعر العربي تتخذ من كلمة «الحداثة» راية مرفوعة لها. و«الحداثة» معناها التجديد ومعرفة روح العصر، حتى لا يكون الفنان متخلفاً عما يجري في الدنيا ويظل أسيراً للأفكار القديمة والأشكال الفنية التي تعودت عليها أجيال سبقتنا إلى الحياة بمئات السنين.

والفكرة في ذاتها سليمة، فلا يجوز للفنان أن يتخلف عن عصره وأن يخلق بينه وبين الواقع الجديد حجاباً كثيفاً، ويكتفي بالحياة في عصور سابقة كان لها ظروف مختلفة كل الاختلاف عن ظروفنا الراهنة، ولا يمكن للشاعر المعاصر أن يعيش بالشاعر والأفكار نفسها التي كانت تسيطر على الشاعر

الجاهلي، أو الشاعر الأموي أو العباسي، فمثل هذا الموقف من جانب أي شاعر معاصر، يعني جموده وانعدام قدرته على التأثير.

ولكن المشكلة أن «الحداثة» عند أصحاب الموجة الجديدة الزائفة في الشعر العربي قد تحولت إلى حق يراد به باطل، فقد أصبحت هذه «الحداثة» مبرراً للخروج إلى عالم من العبث والفوضى،

نرفض الحداثة عندما تكون

خروجاً عن اللغة وخالية من الفكر

(*) عن كتابه: ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء - ط. أ. ولي - دار سعاد الصباح ١٩٩٢ ص ٤٦٩-٤٧٦.

هذا نموذج من شعر أدونيس الذي يدعو إليه، والذي يبدد فيه موهبته العالية التي كان من الممكن له أن يبني عن طريقها فناً رفيعاً مليئاً بالصور الرائعة والفكر العميق والوجدان المشتعل.

وسوف نلاحظ في النموذج السابق أن أدونيس يستخدم الأرقام والمثلثات والمربعات، وفي قصائد أخرى يستخدم أشكالا أكثر غرابة وإثارة للدهشة والنفور.

وهذه الطريقة في استخدام الأرقام والأشكال الهندسية

هي طريقة اشتهر بها الشاعر الفرنسي «جيوم أبولينير ١٨٨٠-١٩١٨» فقد كان هذا الشاعر يكتب بعض قصائده كما يقول «الدكتور عبد الحميد جيدة» في كتابه «عن الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي»:

«... على شكل دخان سيجار أو ربطة عنق أو ساعة أو نافورة ماء أو مطر».

ويقول الشاعر «أبولينير» نفسه في تفسير ذلك: «إنه كتب هذه القصائد خلال الحرب العالمية الأولى على البطاقات البريدية التي كان يرسلها من الجبهة، وذلك بغية تسليّة أصدقائه وإضحاكهم، وقد احتفظ بها على هذا الشكل حين طبعها بعد ذلك لأحاسسه بأن هذه الأشكال تتمتع بجاذبية وأناقة، كما أنها تعيد للذاكرة الظروف التي كتبت فيها».

هذا هو كلام الشاعر الفرنسي «أبولينير» أي أنه كان يلهو ويتسلّى، بمثل هذه القصائد، بالإضافة إلى أن «أبولينير» نفسه كان رساماً فكان يجد المتعة في الجمع بين الرسم والشعر في عمل واحد، على أن أبولينير كان له خارج هذه التجارب الترفيهية كثير من الشعر الرائع الصافي. ويمكن قراءة نماذج من شعره في الترجمة الممتازة التي قدمها الدكتور «عبد الغفار مكاوي» لبعض قصائده في كتابه الهام «ثورة الشعر الحديث».

هذه حقيقة «أبولينير» وقصائده الترفيهية، التي أخذ منها أصحاب الموجة الشعرية العربية العابثة الجديدة بعض أفكارهم فخلطوا بين الرسم والشعر، وتوسعوا في استخدام الأشكال الهندسية، وما إلى ذلك مما هو خارج تماماً على نطاق الشعر.

ومع الأسف فقد وجدت هذه الدعوة العبثية صدى واسعاً عند عدد كبير من الشعراء الشباب، في لبنان والمغرب ومصر.

وهذا ما نحذر منه الشعراء الذين يريدون أن يقدموا شيئاً له قيمة للأدب العربي ولأنفسهم وللناس.

قصائد مليئة بالاضطراب وخالية من الفكر والوجدان، وخالية من الموسيقى والإيماء بأي شيء جميل أو مثير، وليس أنسي الحاج وحده هو زعيم هذه المدرسة فهناك زعيم آخر هو الشاعر السوري أدونيس، ومشكلة أدونيس أعقد من مشكلة أنسي الحاج، فأنسي الحاج في تقديره ضعيف الموهبة، أما أدونيس فقد استطاع في الستينات أن يكتب شعراً رائعاً، وأن يكون ملتزماً إلى حد بعيد بقضايا الوطن العربي ومشاكله الكثيرة والمعقدة، وقد أثبت أدونيس في تلك الفترة وخاصة في ديوانه «أغاني مهيار الدمشقي»، أنه صاحب موهبة فذة، وأنه قادر على أن يعطي للأدب شعراً بالغ الجمال والروعة، ولكن هذا الشاعر انحرف منذ السبعينات وإلى الآن، وإذا به يكتب هذا الهذيان، ويهarris العبث الأدبي على نطاق واسع، بل لقد أنشأ مجلة يدعو فيها إلى هذا المذهب العبثي الجديد هي مجلة «مواقف» التي تصدر في بيروت، ويصدر كل عدد منها وهو ممتلئ بهذا السخف، وبالدعوة إليه والدفاع عنه، واعتباره نموذجاً للشعر العصري الأصيل الذي ليس بعده ولا قبله شعر آخر.

ومن نماذج شعر أدونيس هذه القصيدة التي نشرها في ديوانه «مفرد بصيغة الجمع» وفيها يقول، أو يقول ويرسم في الوقت نفسه، لأنه يستخدم في قصيدته الأرقام والأشكال الهندسية، كما نرى في هذا النص لقصيدته العجيبة.

مكان ولادتي ..

١٩٣٠ الشمس قدم طفل

Δ عرفت أقل من امرأة

لأنني تزوجت بأكثر من امرأة

عرفت أقل من رجل

لأنني تزوجت بأكثر من رجل

أعلنا ..

الزواج غبار ..

لكن ..

مثل يرقعة تتحول إلى فراشة ..

هكذا يتحول غبار الزواج.

إلى زهرة من العشق ..

١٩٣٣ نبتة تشعل قنديلاً ..

١٩٤٠ طفل يعد الغيم ينتظره الحريق.

١٩٥٠ تمطر في أنحاء أخرى.

ستحظى بينابيع يأخذها غيرك.

▽ الجسد أطول طريق إلى الجسد.

□ هل اللمس للجسد وحده حقاً؟

لماذا انحرف أدونيس إلى الهذيان

الشعور الجذبي وأضلاع موهبته الفضة؟!!

فليست هذه الدعوة الأدبية التي يتبناها «أنسي الحاج»

«وأدونيس» وغيرهما
سوى وباء أدبي يمكن
أن يقضي على كل شيء
لو أتيح له الازدهار
والانتشار الواسع، وهذا
هو ما يسعى إليه
أصحاب هذا الاتجاه.

إنني أسأل
أصحاب هذا الاتجاه والتابعين
لهم: «من أين جاؤوا بهذه
التعقيدات الأدبية؟، ولمن



طه حسين



زكي مبارك

يتوجهون بهذا السخف وهذا العبث؟. إن العرب في هذا العصر يحاولون النهوض والتغلب على المضاعف العديدة التي تواجه حياتهم، فهم يحاولون التخلص من التخلف ومن كل ما يصحبه من مظاهر وأزمات.. لقد نام العرب «على أذانهم» خمسمائة عام أو يزيد. ثم استيقظوا فوجدوا الدنيا تتحرك وتسبقهم بمئات السنين. والعرب يحاولون الآن التخلص من هذه الفجوة الخطيرة بينهم وبين الحضارة الحديثة، ويبحثون عن الكرامة والأمان والاستقرار وحل المشاكل المادية والروحية. وهذه أمور كلها تمثل قضية كبرى لا ينفع فيها العبث واللهو والبحث عن «الموضة» الأدبية والفكرية والفلسفية لمجرد التقليد والتظاهر بمعرفة أحدث المدارس الجديدة في الفن والفكر. بل إن الذي ينفعنا الآن هو القول الشجاع، والوجدان المشتعل والرؤية الصادقة العميقة، والتحريض المستمر على التحضر والنهوض ورفض الخلافات الصغيرة والانقسامات العابرة والإصرار على الحوار بالعقل لا بالعنف والرصاص.

وهذا كله يحتاج إلى أدب نابض بالحياة والعمق والبعد عن التهرج والفوضى.

إننا لم نسمع عن شيوع مثل هذه الموجة الأدبية المنحرفة المريضة في الهند أو في تركيا أو في أمريكا اللاتينية أو في اليابان أو في اليونان أو يوغوسلافيا، أو عند الملايين من أبناء هذا العصر في أفريقيا وآسيا وأوروبا الفقيرة، فمن أين جاؤوا بهذه التقاليع العجيبة ما دامت معظم المجتمعات الإنسانية في هذا العصر ترفضها وتنكرها؟

إن هذه التقاليع الأدبية هي وليدة بعض بيئات الترف والفراغ في أمريكا ومجتمعات أوروبا الغربية المتقدمة التي لم تعد تجد أمامها ما تهتم به أو تسعى إليه في مجال القيم الإنسانية والحضارية، والتي لم تعد تفكر إلا في الرخاء الذي تخشى من زواله، وفي الراحة التي أصبح

من «المتعب» الحرص عليها والرغبة في منعها من الانهيار.

بل إن هناك مجتمعات غربية متقدمة لم تعرف هذا النزق الأدبي والعبث الفني على الإطلاق مثل إنجلترا التي لم نسمع -على حد علمي- بشاعر فيها يكتب قصائده بالمثلثات أو المربعات والمستطيلات، ولم نسمع بفنان يسمح لنفسه بالهلوسة ويجد حوله نقاداً يصفقون له ويرفعون رايته ويقولون للعالم إن هذا هو الفن الصحيح.

ومن العجيب أن أصحاب هذه الدعوة الجديدة يقولون إنهم يكتبون قصيدة النثر الخالية من كل قيود القصيدة القديمة مثل الوزن أو الموسيقى وغير ذلك من العناصر الفنية الأساسية في الشعر، فهل هذا الادعاء هو ادعاء صحيح؟ الحقيقة أنه في جوهره ادعاء كاذب؛ لأن الأدب العربي قد عرف منذ عصوره القديمة ذلك النثر المليء بندي الشعر وعذوبته، منذ كتابات أبي العلاء في «الفصول والغايات» وكتابات المتصوفين من أمثال «ابن عربي» و«النفري» وكتابات «أبي حيان التوحيدي»، وقد عرفنا هذا اللون من النثر المليء بروح الشعر في كثير من كتابات المعاصرين مثل طه حسين، والرافعي والعقاد، وحسين عفيف، وزكي مبارك، ومي، وجبران، وأمين الريحاني، ومحمد الماغوط، فما أكثر ما كتب هؤلاء نثراً مليئاً بروح الشعر ومليئاً بالوجدان والعاطفة ولكننا أبداً ما كنا نخرج من كتابات هؤلاء ونحن أشبه بالمجانين الذين فقدوا عقولهم وفقدوا قدرتهم على التمييز بين الأشياء، بل كنا نخرج من كتابات هؤلاء الموهوبين -ونحن على العكس- في منتهى اليقظة والنشوة العقلية.

فليحذر أبناء الجيل الجديد من الشعراء هذه الموجة الجديدة من العبث الفني والتي لا تريد أن تبني الوجدان العربي، بل تريد أن تدمره وأن تدمر معه أدبنا وإحساسنا بالجمال وتطلعوننا إلى النهوض والتقدم والتجديد الصحيح، فما هذه الموجة الأدبية الجديدة في جوهرها إلا جزء من الحرب على شخصيتنا العربية الأصيلة، ومحاولة لاقتلاعها من جذورها، لتسليمنا إلى عدونا، جثة هامدة.

ومن يحجب الشمس؟! !!

بقلم: أحمد المزاري

«بالأمس كانت هناك شجرة.. عجوز.. جفَّ صَرْعُهَا.. لكنها بقيت حيَّة.. كانت تتوسَّطُ ميداناً ما، نبتت حوله «مصارف» صغيرة.. أخذت تكبر وتكبر، حتى حجبت عنها الشمس.. لكنها بقيت حيَّة.. عندئذ.. تأمرت «مصارف» عليها.. واجتثتها...»

الإصلاح والتقويم..
لقد كان صالحاً وقوَّاماً، قبل أن تطأ قدماه عتبة هذه الدار، أما الآن.. فإنه بحاجة إلى أن يستعيد ثقته بالمعاني والمثل التي مات منها في صدره الكثير والكثير، ويحتاج إلى زمن، لا يدري هل يطول أم يقصر، لكي تعاود النبض من جديد..

.. كانت تقف وحيدة.. تسودُ آخر شعاع انساب إليها من خلال الفروج التي خلفتها المباني الشاهقة فيما بينها.. كانت تقف إلى جوارها -منذ قليل- تلك الزوجة الشابَّة، التي ألجأتها الأقدار إلى القيام بعمل زوجها الشاب، الذي مضى على غيابه الآن، قرابة الثلاثين الأعوام، دون أن تراه ولو لبرهة خاطفة.. بيد أن تلك الابتسامة الشاحبة -بعض الشيء- على وجه الزوجة، وكذا الثياب البيضاء التي ترتديها معظم الوقت، تؤكدان لها أنه ما يزال حياً يرزق.. ولكن.. أين؟.. كم تودُّ أن تراه قبل أن تودع الحياة.. لقد علمت بقراب نهايتها، من خلال حديث دار بين اثنين من المارة، كانا يسيران منذ بضعة أيام إلى جوارها.. كان أحدهما يشير أثناء حديثه، إلى خبر منشور في ركن مهمل من صحيفة ذلك اليوم، ثم يشير إليها دون أن يُعنى بالنظر تجاهها..

كانت فيما مضى جميلة يانعة، تنعكس صورتها على الأعين مصحوبة بابتسامة فرحة، وعلى الشفاه في شهقة إعجاب.. كم كان يحلو لعشاق الربيع أتباعها أن يزورها ضحى وليلاً، ويلهو عند أقدامها كما يلهو الصغار.. لقد كان الواقع المر يتحوَّل بين أحضانها إلى حلم بديع، لا يؤدُّ أحدهم أن يفارقه.. كان نصيبها من السماء ممتدّاً حتى نهاية الأفق، أما اليوم.. فقد انحصر فيما يعلو رأسها من فراخ.. باتت الآن تلهث لاستكمال شهيقها، وتلهث لإخراجها.. لم يعد هناك من يهتمُّ بها.. يرهاها.. ولم يبق لها من الطعام أو الشراب سوى الماء.. الماء فقط، تمدُّ أصابعها.. تنبش بأظفارها هنا وهناك، تبحث عن قطرة خلَّفها لها الطين، بعد أن نال أكثر من حاجته، وتنجح مرةً وتفقُّ مرَّات.. لذا

مرَّت بضغ لحظات، قبل أن يشعر بمن يلكؤه في ظهره، ويدفعه للأمام.. نَحَّى يده التي كان يحمي ظهرها عينه من ضوء الشمس، ثم استدار ليرى بقايا ابتسامة جامدة، ما زالت تلوح على قسَمَات ذلك الجندي، الذي كان يقف كالصنم، أمام البوابة الرئيسية لذلك الصرح الشاهق، المشيد بكُتل ضخمة من الأحجار الصلدة، التي تكسو بعض أجزائها الطحالب الخضراء، وتعلو بعضها الآخر صفرة الرطوبة.. تكلف ابتسامة واهية، ردّاً على بقايا تلك التي بدأت في التآكل من تقاطيع الجندي.. ثم:-

- معذرة.. فأنت تعلم أنني..
- نعم أعلم.. وأرجو ألا تعود لمثلها..
- حتى أنت؟.. كنت أظن أنك..
- ظن كما تشاء.. والآن ابتعد وإلا..

.. انقطع الحديث عند هذا الحد.. تراجع الجندي عدة خطوات تحركتها قدماءه أثناء الحوار.. كان هناك من يقرب من البوابة -قادمًا من الداخل- وكانت السيارة الفارغة الواقفة إلى جوار الرصيف دليلاً على علو شأنه.. رفع الجندي سلاحه بتشنج، بينما كان حذاؤه القوي، يدك هذه البقعة من الأرض، التي اعتادت تلك الزلزلة المجنونة، من ذلك الجندي وأمثاله الذين يتبادل وإياهم ثوبات الحراسة...

.. خرج صاحب الشأن الكبير، دون أن يُعنى بالرد على تحية الجندي، التي كانت تحتملها القوانين العسكرية، ودون أن يشعر بتلك النظرات النارية، التي كانت تقذفه بها عينا صاحبا، الذي خرج هو الآخر -منذ قليل- من نفس البوابة، ولكن.. دون أن يجد في انتظاره سيارة طويلة أو قصيرة، أو أحداً يحية تحية عسكرية أو مدنيّة.. إن ذلك الوجه المشرق، الذي تنطق قسماؤه بالطيبة، يؤكد رُفَّة الثقة بشخص ما، عند رؤيته للمرة الأولى.. إن ذلك الوجه الأملس اللامع، الذي بدأ يختفي خلف الزجاج السميك المعتم، كان مصدر رعب وفرع، لكل أولئك الذين استضافوا يوماً، أو ما زالوا يستضيفون جدران ذلك الصرح الشامخ، الذي كُتب على واجهته العريضة «دار

لم يكن عجباً أن يشحب وجهها .. تجف عروقها وتنفر بارية على بدنها الذي كان يوماً ما غصاً قتيلاً، ولم يكن مُستغرباً أن تلد أزهاراً ميتة..

أفاق من شروده .. مشى الهوينى .. يُحِلُّ لمن يراه أنه يتَحَسَّس الأرض .. يختبر ثباتها تحت قدميه .. لم تعد هناك أسوارٌ تمنعه من الخطو إلى الأمام أو الهرولة، أو ركوب آية حافلة ثقلة إلى البيت أو قريباً منه .. بيد أنه أثر السير .. يريد أن يملأ عينيه بكل شيء غاب عنه طوال تلك الفترة، التي بدت - في بعض الأحيان - وكأنها لن تنتهي، يريد أن يتطلع إلى الشمس بين لحظة وأخرى، كي يُعوَّض بعض الذي فاتته منها .. يشعر أنها غير تلك التي كان ينظر إليها من خلال القضبان .. كانت الأخرى حزينة كاسفة، كأنها سحينة .. أما هذه .. فمشرقة باسمه، تملأ السماء وتبسط ثوبها المضيء على الأرض .. كل الأرض، وتستأثر بنصف ساعات اليوم ... ما أجل هذا الضجيج الذي يطرق سمعه الآن .. وما أعذب الأنغام التي تعزفها السيارات عند المعابر والتقاطعات، بل ما أطيب العبق المنبعث من جَنَابَاتِ هذا الزقاق المظلم الضيق، الذي لا يجفُّ أبداً، ما دامت تقيم في أحد بيوتته المتهالكة .. أسرته الحبيبة ..

.. كم سيكون وقع المفاجأة رائعاً .. ومؤثراً .. لسوف تنطوي عندئذ كل آلام الأيام ومعاناة الليالي الطوال، وكأنها لم تكن .. لسوف تولد الحياة من جديد بين أركان هذا البيت القديم، الذي غادرت لبعض الوقت، وما هو ذا يعود إليه .. ما أجل الجنة حين يتقاسم أزبعتهم ثمارها .. هو وزوجه الحبيبة وفلذتا كبده المعشوقتان عائشة وأمنة .. لاحث على وجهه ابتسامة ساخرة ..

كم كان إسماهما مصدر ضيق المحقق .. وحقته:

- إذن فانت تُصر على أن تأتي الدنيا بعائشة وأمنة آخرين؟ ..
- وماذا في هذا؟ .. أهنالك حجب على الأسماء؟ ..
- لا .. ولكن .. ألم تجد من الأسماء غير هذين؟ ..
- تنقصد أنه كان من الأفضل أن أسميهما جيجي وفيفي مثلاً؟ ..
- أو صافيناز وشاهيناز .. هناك أيضاً لولا وبولا .. ما رأيك؟ ..
- وأين إذن تراثنا الزاخر بالأسماء ذات المعاني؟ ..
- ها أنت ذا تعود إلى جنونك .. وتضيئ الدائرة على نفسك ..
- هل يعني هذا أن الأسماء جريمة؟ ..
- نعم .. حين تكون عائشة وأمنة ابنتي سيف الإسلام ..
- لم أكن أدرك شيئاً يوم أن سَمَّاني أبي بهذا الاسم ..
- تستطيع تغييره في مكتب السجل المدني إن شئت ..
- ولماذا أخيره؟ ..
- لكي تعيش في أمان ..
- وماذا عن كل حامل لاسم حسام الدين؟ ..
- لا شيء عليه .. فليس لوقعه من الاستفزاز ما لاسمك ...

.. بلغ البيت أخيراً .. تخطى بضع الدرجات المتآكلة بسرعة البرق .. طرق الباب الضعيف بقوة كادت أن تحطمه .. وقبل أن يستكمل الباب أنيته المعهود، كان يعانقُ زوجته ويحتضن طفليه اللتين تَسَبَّتا بساقيه .. اختلطت صيحات الفرح بشلال من الدموع كأن له على لسانه طعم أعذب من دموع الحزن التي كان يتجرعها وحيداً من قبل .. ومن خلال الكلمات اللاهثة التي تدافعت من فم زوجته، التي لم تضح بعد من شدة المفاجأة، علم أن عائشة بدأت أولى خطواتها إلى المدرسة، وما يعنيه ذلك من أعباء جديدة، تُضاف إلى أعبائه السابقة، بيد أنها - زوجته - لم تدرك أن ذلك النبا بالذات، قد تحوّل في عين اللحظة التي طرقت فيها سمعه، إلى معنى جديد .. أيقظ بريق المعاني التي نامت في صدره طوال تلك السنوات، وأحيا الذي مات فيها .. إن الذي مات حقاً، هو تلك السنوات التي مضت وانقضت، دون أثر يُذكر .. اللهم إلا بعض الأخاديد على وجهه، وبضع شعرات بيض في مُقدّم رأسه .. وما أهونه من أثر ..

.. لم تتالك نفسها من الفرح .. ودّت لو تُهرول إليه معانقة - حين رآته

قادماً نحوها من أحد المنعطفات - لكنه

كفأها المشقة، وجرى إليها معانقاً

ومقبلاً .. ثم ارتد إلى السوراء بضع

خطوات لكي يملأ عينيه منها .. يبدو

أنها قد تحث من عمرها هي الأخرى،

تلك السنوات الأخيرة، وإن لم تسلم

- مثله - من آثارها .. كان يُحس بشوق

عجيب تجاه هذه الشجرة .. العجوز .. كانت تُذكره - كلما تطلع إليها - بأمة

الحبيبة .. تلك التي كافحت في صمت، وصبرت وثابرت دون تذمر .. ثم ماتت

راضية عن حياتها - منذ بضع سنوات - أما أبوه .. فَرَحَلَ قبل ذلك بكثير .. لم

يكن يذكر عنه إلا بضع كلمات، كانت أمه تُكررها على مسامعه، كلما عَن له

أن يسألها عنه .. «إن أباك يا بُني كان رجلاً في بيته .. رجلاً في عمله .. رجلاً في

تَعَامُلِهِ .. يفعل ما يراه صواباً، حتى وإن كان فيه حنفة .. ويُعاند الناس .. كل

الناس، ما دام الحق في جانبه ..» ثم تختم مقولتها الأثيرة بثلاث كلمات «لَبَنَك

تَصِيرُ مثله ..» ...

... ها هي ذي الشجرة .. تتطلع إليه بإعجاب .. وترى فيه أباه الذي

كان يقف من قبل في نفس المكان، ويدبر عين الحانوت الحسيبي، الذي يستند

إلى جذعها منذ زمان طويل .. ها هو ذا جيلٌ ثابت على مَرِّ السنين - رغم تَغْيِير

الأحوال - لا تزعزعهُ الزلازل، ولا تنال منه المحن .. إنها الآن قَانِعة بما رأت ..

راضية بما ينتظرها أكثر من أي يوم مضى ...

عادت الحياة إلى سابق عهدها من الكفاح والمثابرة، وبدأ العد التنازلي

لحمل زوجة التي بدت سعيدة بهذا الطارق الجديد، مُستعدة لاستقباله حين

يأزف الميعاد .. أما هو فكان أكثر سعادة بما يعنيه ذلك الحدث بالنسبة إليه ..

إن حَلَّ زوجه يعني تجدد الحياة في شرايينه وأوردته، وقدرته على العطاء بعد

ليس هناك حجر على الأسماء لكن

في زهائنا حتى الأسماء عليها كلام



انْتَفَضَ .. وَدَبَّتْ فِي عُرُوقِهِ الْحَيَاةُ الْكَامِنَةُ، الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي بَضْعٍ وَرِيقَاتٍ صَغِيرَةٍ، تُؤْشِكُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَرَاعِمِهَا الْخَضْرَاءِ، الَّتِي انْتَشَرَتْ هُنَا وَهَنَاكُ.. عَلَى جِسْمِهِ النَحِيلِ..»

خرج يبحث - في صباح اليوم التالي - عن عملٍ جديدٍ .. أَكَّدَ لَزُوجِهِ الَّتِي جَاهَدَتْ لِإِحْفَاءِ آلَامِ الْمَخَاضِ، أَنَّهُ لَنْ يَتَغَيَّبَ أَكْثَرَ مِنْ بَضْعٍ دَقَائِقَ، يَسْتَفْسِرُ خَلَالَهَا عَنْ عَمَلٍ مَا، ذَلِكَ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ أَحَدُ الْجِرَانِ الطَّيِّبِينَ .. شَبَّعَتْهُ بِابْتِسَامَةٍ وَدُعَاءٍ ..

.. هَرَوَّلَ مُسْرِعاً إِلَى الْعَنْوَانِ .. اسْتَفْسَرَ عَنْ الْعَمَلِ .. عَلِمَ أَنَّ غَيْرَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ .. حَمَدَ اللَّهَ تَعَالَى وَحَوَّلَ، ثُمَّ بَادَرَ بِالْعُودَةِ .. إِنَّ رُوحَ الْفَقْرِ تَحِيَا فِي بَعْضِ الْأَجْسَادِ مِثْلًا تَحِيَا فِي بَعْضِهَا الْآخَرِ رُوحُ الْغِنَى .. إِنَّ أَحَدًا لَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَجْلَهُ الْمَرْسُومَ - فَقِيرًا كَانَ أَمْ غَنِيًّا - .. فَلَتَكُنْ إِذَنْ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَسْتَظِرْ يَوْمًا آخَرَ .. بَلَغَ الْبَيْتَ .. طَرَقَ سَمْعُهُ صَرَخًا أَعْقَبَتْهُ زَغْرُودَةٌ .. اسْتَبْشَرَ خَيْرًا .. هَرَوَّلَ مُسْرِعاً إِلَى الدَّخْلِ .. خَرَجَتْ إِلَيْهِ الْقَابِلَةُ مَتَهَلِّلَةً: مُبَارَكَ عَلَيْكَ عَطِيَّةُ اللَّهِ .. رَزَقْتُ وَلَدًا .. لَمْ يُصَدَّقْ أَذْنِيهِ .. ثُمَّ ثَابَ إِلَى رُشْدِهِ .. شَعَرَ

بِنَوْعٍ مِنَ الْخِفَةِ تَسْرِي فِي بَدَنِهِ كُلِّهِ .. سَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا .. الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ صُنُوفَانِ .. وَهَذَا أَوَّلُ الْغَيْثِ ... مَنَعَتْهُ الْقَابِلَةُ مِنْ الدَّخُولِ عَلَى زَوْجِهِ فِي هَذَا

الْوَقْتِ .. انْتَبَهَ إِلَى ابْنَتَيْهِ تَقْفَانِ إِلَى جَوَارِهِ .. احْتَضَنَهُمَا وَقَبَّلَهُمَا .. ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلَى سَاعَتِهِ .. مَا يَزَالُ الْوَقْتُ ضَحَى .. حَاطِرَةٌ مَا تُلْحِقُ عَلَيْهِ .. انْطَلَقَ مِنْ فُورِهِ إِلَى الْخَارِجِ ..

.. تَطَلَّعَ إِلَيْهِ مُوَظَّفُ السَّجَلِ الْمَدِينِي بِدَهْشَةٍ .. لَيْسَ هُنَاكَ حَجَرٌ عَلَى الْأَسْمَاءِ، بَيِّنَ أَنَّهُ شَعَرَ بِبَعْضِ الْخَوْفِ، بَيْنَمَا كَانَ يَسْتَعِيدُ الشَّابَّ الْوَاقِفَ أَمَامَهُ اسْمَ مَوْلُودِهِ .. اتَّابَتْهُ الرَّعْشَةُ .. ثُمَّ عَادَ قَتْلَكَ نَفْسَهُ .. سَيَظَرُّ عَلَى اهْتِرَازِ يَدِهِ .. دَوَّنَ الْإِسْمَ بِخَطٍّ وَاضِحٍ ..

.. كَانَ مَا يَزَالُ عَلَى وَجْهِهَا بَعْضُ أَمَارَاتِ الْإِجْهَادِ .. قَبَّلَهَا بَيْنَ عَيْنَيْهَا وَهَنَّاكُمَا بِالسَّلَامَةِ .. رَفَعَتْ إِلَيْهِ الْوَلِيدَ الْبَاكِي، فَاحْتَضَنَتْهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأُنَاةِ، ثُمَّ قَبَّلَتْهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَشَرَعَ يُؤَدِّنُ لِلصَّلَاةِ فِي أَذْنِهِ الْيَمْنَى .. سَأَلَتْهُ بِاسْمَةٍ: مَاذَا سَدَعُوهُ؟ .. أَجَابَهَا بَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنَ الْأَذَانِ: لَقَدْ أَسْمَيْتُهُ بِالْفَعْلِ ..، ثُمَّ شَرَعَ يَقِيمُ الصَّلَاةَ فِي أَذْنِهِ الْيَسْرَى .. ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهَا عَلَامَاتُ الْحَيْرَةِ .. أَلَحَّ عَلَيْهَا الْفَضُولُ .. لَكِنَّمَا تَحَلَّتْ بِالصَّبْرِ حَتَّى يَفْرَغَ .. بَادَرَهَا قَلَّ أَنْ تَنْطِقَ: تُحْدِي .. أَحِبِّي عَنِّي «شَبِيلَ سَيْفِ الْإِسْلَامِ» ..

فَتَرَةً كَمُونٍ، لَمْ تَقْضِ - رَغْمَ طَوْلِهَا - عَلَى حَيَوِيَّةِ الْبِذْرَةِ الصَّالِحَةِ .. لَكِنْ .. كَيْفَ يَعْنُ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ مُنْعَصَصَاتٍ؟ .. كَانَ لَا بَدَّ لَشَيْءٍ بِغَيْرِ أَنْ يَلُوحَ فِي الْأَفْقِ .. يُعَكِّرُ صَفْوَةَ السَّعَادَةِ الَّتِي تَرْفُقُ حَوْلَ أَسْرَةٍ، لَمْ يَسْتَطِعْ الْفَقْرُ أَنْ يَنَالَ شَيْئًا مَا مِنْ الْبَسْمَةِ الَّتِي تَقَابِلُهُ بِهَا صَبَاحَ مَسَاءٍ ..

وَكَانَ .. أَنْ طَالَبَتْهُ بَعْضُهُمْ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، بِتَقْلِيدِ حَانُوتِهِ الْخَشْبِيِّ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، بَدَعُوهُ أَنَّهُ يَشْوُهُ الْمَكَانَ الَّذِي يَفْكُرُونَ فِي اسْتِمَارِهِ سِيَاحِيًّا وَقَوْمِيًّا .. لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْمُسَوِّلِينَ، الَّذِينَ مَنَحُوهُ - كَمَا مَنَحُوا أَبَاهُ مِنْ قَبْلُ - تَصَرُّحًا بِإِقَامَةِ الْحَانُوتِ فِي هَذَا الْمَكَانِ ..

والتقى هناك «بالروتين» ذي العيونات السمكية، الذي قاطعه بحزم:-

- إِنَّ تَصَارِيحَ إِقَامَةِ الْحَوَانِيتِ مَوْقُوفَةٌ هَذِهِ الْأَيَّامُ يَا .. مُحْتَرَمَ ..
- إِنِّي أَهْمَلُ تَصَرُّحًا .. أَرِيدُ فَقَطْ تَغْيِيرَ الْمَكَانِ ..
- إِنَّ تَغْيِيرَ الْمَكَانِ يَعْنِي تَصَرُّحًا جَدِيدًا .. وَالتَّصَارِيحُ مَوْقُوفَةٌ هَذِهِ الْأَيَّامُ ..
- فَمَاذَا أَفْعَلُ إِذَا كُنْتُ مُهَيَّئًا بِالطَّرْدِ مِنْ مَكَانِي الْقَدِيمِ، بِدَعْوَى أَنَّ الْحَانُوتَ يَشْوُهُ الدَّ ..

- هَذِهِ أَلْ «مَاذَا» يُجِيبُكَ عَنْهَا
مَنْ يَهْدِدُوكَ بِالطَّرْدِ لَا نَحْنُ ..

.. انْهَالَتْ الْفُؤُوسُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ثُمَّ اشْتَدَّتْ جَدَّتُهَا فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ .. وَخَفَّتْ فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ فَقَطْ .. هُوَ الْحَانُوتُ جَانِبُ الْحَانُوتِ ..

.. تَسَاقَطَتْ أَغْصَانٌ كَثِيرَةٌ، هَزَّهَا الزَّلْزَالُ .. غُصْنٌ وَاحِدٌ فَقَطْ انْغَرَسَ فِي الْأَرْضِ .. لَمْ يَأْبَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ ..

.. وَأَخِيرًا .. خَارَزَتْ قَوَاهَا .. انْهَارَتْ .. سَقَطَتْ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي أَرَادُوهُ لَهَا .. التَّقَتْ عَجَائِزُ الْوَرَاكِ الْحَانُوتِ بِعَجَائِزِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي عَنَاقٍ طَوِيلٍ .. وَأَخِيرًا .. وَسَجَبَتِ الشَّجَرَةُ وَمَا عَلِقَ بِهَا مِنْ بَقَايَا الْحَانُوتِ إِلَى خَارِجِ الْمِيدَانِ .. كَانَ صَوْتُ احْتِكََاكِهَا بِالْأَرْضِ يُشْبِهُ الْحَشْرَجَاتِ الْآخِرَةَ .. لِلْمَحْتَضِرِ ..

هامش أخير:-

«حِينَ سَقَطَتْ أَمْطَارُ أَوَّلِ الشِّتَاءِ، سَالَتْ الْمِيَاهُ فَوْقَ التَّشْكِيلِ الْجَمَالِيِّ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الْمِيدَانَ، حَامِلَةً مَعَهَا كُلَّ مَا لَقِيَتْهُ مِنْ ذَرَاتِ التُّرَابِ الْعَالِقَةِ بِهِ، ثُمَّ تَرَكْتَهَا بَيْنَ ثَنَائِيَةِ الْعَدِيدَةِ، بَعْدَ أَنْ امْتَزَجَتْ بِهَا وَحَوَّلَتْهَا إِلَى طِينٍ مَتَمَسِّكٍ، اسْتَكَانَ فِي مَكَانِهِ الْجَدِيدِ ..
.. أَمَّا الْغُصْنُ الصَّغِيرُ .. فَمَا إِنَّ وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَوَّلِي الْقَطْرَاتِ، حَتَّى